إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول ٢٠١١م

تراجيدية سياوش والعبر التاريخية

چنین است کیهان پر درد و رنج
چه نازی به نام و چه نازی به گنج

محمد نويد بازرگان*
سيدابراهيم آرمن**

الملخص

يحظى متلقّو الآداب أثناء تطلعهم على الأدب بقِيَم أخلاقية سامية وعِبَر تاريخية يحتاج الإنسان لنيلها إلى سنوات بل عصور من التجارب وقد تكون حياة الشخص ثمنا لما يناله من الخبرات التى تساعده على سعادته بل على إسعاد الآخرين أيضا. إن التراجيديا أو المأساة بالرغم من إثارة الحزن العميق لدى المشاهد، تأخذه إلى قاعات التفكير ليتجنب المهالک التى أودت بالبطل التراجيدى إلى الموت أو الهلاک. فمتلقى المسرحية بعد رجوعه من المسرح يسرّه ما توصل إليه من قيم كانت روح البطل ثمنا لها.

يلقى هذا المقال نظرة عابرة إلى التراجيديا ومدلولاتها فى الأدب الدرامى، ثم يتطرق إلى تراجيدية سياوش عند الشاعر الإيرانى العملاق الحكيم فردوسى فى ملحمته الشهيرة المعروفة بالشاهنامه، مشيرا إلى شخصياتها البارزة وما تتركه من أثر على نفس القارئ. هذا ويقدم المقال غايات فردوسى الأخلاقية التى تترتب على هذا الجزء من الشاهنامة.

الكلمات الدليلية: فردوسى، الملحمة، الأدب الدرامى، التراجيديا، الشاهنامة، سياوش.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى رودهن – أستاذ مساعد.
**. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى كرج – أستاذ مساعد.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.عبدالحميد أحمدى

Shams1516@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/١٧هـ. ش   تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/١٢هـ. ش

المقدمة

يعتبر فردوسی من الشعراء الإيرانيين الكبار بل من أساطين الأدب العالمی. حاول هذا الأديب العملاق طيلة ثلاثين عاما ومن خلال خلقه للشاهنامة أن يحافظ على اللغة الفارسية. وحقا استطاع فردوسی أن يحمی كثيرا من المفردات الفارسية الدرية من الضياع بإدخالها فی ثنايا شعره، يفتخر الشاعر بهذا الإنجاز العظيم بقوله:

بسی رنج بردم در اين سال سی　　　عجم زنده كردم بدين پارســی

ولد هذا الشاعر الفحل أبوالقاسم منصور بن حسن بن إسحق فی النصف الأول من القرن الرابع الهجری وفی قرية بناحية طبران طوس، إحدى مدن خراسان (مشهد الحالية)، واستطاع أن يتعلم العربية والبهلوية، ويحيط بآدابهما، ويقف على تاريخ أمته، ويفوق أقرانه فی نظم الشعر على البديهة.قضی الشاعر وقته فی طوس فأحبّها، وشغف بجدولها الرقراق المتفرع من نهرها، فأقام بجواره ينشد أشعاره متمنيا أن يأتی يوم يجد فيه السد اللبنی المقام على هذا النهر، من يقويه بالحجارة والآجر والكلس والجير، فقد كان كثيرا ما تحطمه السيول، فينقطع الماء وتضطرب الأحوال.واختار الشاعر لنفسه لقب فردوسی ليتخلص به فی شعره وعاش على غلّات ضياعه فی طوس دهقانا ميسور الحال، ينظم الشعر ويتغنى بحب بلاده. (حلمی، ۱۹۸۵م: ۸۲-۸۳)

يبدأ فردوسی كلامه بحمد الله والثناء على رسوله وإظهار سبب النظم. ثم يستعرض مسيرة تاريخ إيران منذ أقدم العصور؛ فيتحدث عن زمن الملك كيومرث أول ملوك البيشداديين، ثم عن منوجهر وبداية الحضارة البشرية والتعرف على طرز المعيشة وأسلوبها؛ ثمّ يشير إلى أنّ هوشنک هو الذی استخرج النار من الحجر واعتبر يوم اكتشافها عيدا أسماه جشن سده، وقداستمرّ فترة طويلة وسيلة من وسائل الاتصال بين أفراد شعب إيران.ويذكر كذلک إلى أنّ جمشيد هو من علّم الشعب طرائق المأكل والملبس وإعداد المنزل، وقسم المجتمع إلى طبقات وجماعات، وأطلق على اليوم الذی أنهى فيه ذلک عيد النيروز. وفی قصة جمشيد يأتی ذكر موضوع الضحاک وكاوه الحداد ويركز فردوسی على اتحاد الشعب الإيرانی ضد الغاصب.ثم ينتقل إلى سلطنة

منوجهر وابنه نودر.وحين يِقتل الأخير على يد أفراسياب التورانى تنشأ حرب عدائية قومية ثأرية بين شعبى إيران وتوران، يديرها فردوسى ببراعة لصالح الفرس نتيجة وبطولة وشهامة، ويبرز دور البطل الذى اختاره لشاهنامه رستم بطل الأبطال الذى ينتهى حضوره فى أى معركة بنصر حاسم لبلاده. وفى عهد كاوس تدخل حرب إيران وتوران مرحلة جديدة وتقع مأساة موت سهراب.وبذهاب سياوش إلى توران متألما من فعال كاوس وبقتله على يد أفراسياب، تصل الحرب بين الشعبين إلى أوج قسوتها، وتتبدى شجاعة رستم وكيو وكودرز وسائر المحاربين الإيرانيين الشجعان.ويقع أفراسياب فى الأسر، ويُقتل فى عهد كيخسرو لتنتهى حروب إيران وتوران. ويصل فردوسى إلى قصة كشتاسب وظهور زردشت، فيورد أشعارا للدقيقى تخدم الموضوع.ثم يشير إلى حكم لهراسب ودارا وحروبه مع الاسكندر، دون أن يشير إلى كورش وقمبيز، وهما مؤسسا الإمبراطورية الهخامنشية.وحين يصل إلى عصر الأشكانيين يكتفى بعدة أبيات للحديث عنه.ثم يصل إلى الدولة الساسانية فيفصل الحديث حول ملوكها ومآثرهم وينهى الشاهنامة بموت يزدجرد الساسانى فى حروبه مع العرب. (حلمى، ١٩٧٥م: ٧٠-٧١)

التراجيديا

تعتبر التراجيديا نوعا أدبيا أو مسرحية تنتهى بموت البطل بغتة أو مصيره المحزن. هلاک البطل أو مصيره المحزن ينتجان عادة عن تناقضات يراها المشاهدون أو المشاهد أثناء الأحداث (انوشه، ١٣٨١ش: ٣٣٠)، ولذلک سميت التراجيديا لدى البعض بتصوير الخيبات عند كبار الشخصيات. (كدكنى، لاتا: ٢٢) إن أرسطو إلى جانب الوحدات الثلاث (الزمان، المكان، والموضوع) كان يعتقد أن البطل يجب أن يكون نجيبا بارزا منتميا إلى طائفة مرموقة مؤكدا على حبكة جادة تشمل موضوعات أخلاقية فائقة. (زرين كوب، ١٣٥٧ش: ١٢١)

ما يلفت النظر فى رأى أرسطو هى الغاية التى يتوخاها من التراجيديا: يتم إنجاز التراجيديا فى بيئة مفعمة بالتآسى والخوف فينشأ عنهما خلو النفس من المشاعر السلبية

وطهارتها. (المصدر نفسه: الصفحة نفسها؛ ديجز، ۱۳۶۶ش: ۳۳۱) ولكن هناك سؤال، وهو أن هذا التآسى هل يوجد فى الملهاة بوصفها أحد أركان الأدب الدرامى أيضا؟ والجواب هو أن فى الملهاة غالبا ما يجد المشاهد بينه وبين الممثّل على الخشبة فاصلا ليتمكن من الضحک على شخصيته المتناقضة بينما يحاول المشاهد تقريب ذاته من البطل فى التراجيديا. (ديجز، ۱۳۶۶ش: ۳۳۴) وهكذا يبدو أن ما قاله شلى: « تراجيديات شعراء أثينا كمرايا يرى المشاهد نفسه فيها باختلاف بسيط فى الأحوال.» يمكن توسيعه بحيث يشمل كل زمان ولغة. (المصدر نفسه: ۱۹۷ نقلا عن شلى)

وهذا التقارب بين المشاهد والبطل يؤدى إلى قلق المشاهد تجاه مأساة تحدث قريبا إلا أنه يرتاح بعد نهاية المسرحية أنه لم يُصَبْ بأذى من تلک المأساة، وما يرافقه لدى عودته من المسرح هى تجربة خلّصته من واقع مرّ عانى منه شخص آخر وهذا الارتياح يسمى بالخفة أيضا. (شميسا، ۱۳۷۰ش: ۱۵۹)

تراجيدية سياوش[۱]

ولد سياوش من جارية [تورانية] حسناء كانت هاربة من ظلم أبيها عندما لاقاها توس وجيو وهما يتصيدان بناحية من نواحى توران، فتنازعا عليها، واحتكما إلى كيكاوس، الذى ما إن رآها حتى استأثر بها وضمّها إلى حريمه. فحملت منه ووضعت ولدا كأنه صنم حسنا وجمالا، فسرّ به كيكاوس، وأرسله مع رستم لكى يربّيه ويعلمه آداب الملوک.فلما شبّ رحل إلى والده، وأقعده بجنبه على العرش.

وفى يوم من الأيام رأته سودابه زوجة والده، فهامت فى حبه لما هو عليه من حسن الجمال والكمال. دخلت سودابه على الملک تطلب منه السماح لسياوش بزيارة أخواتها وراء الستر، لأنهن سمعن عنه، إلا أن سياوش فطن للحيلة وعرف أنها تدبير سودابه، فتظاهر أن زيارة النساء فى غرفهن ليست من آداب الملوک وسيرهم. فسرّ والده بذلک

۱. تم تلخيص هذه التراجيديا من كتاب عنوانه: الشاهنامة ملحمة الفردوسى الكبرى لسمير مالطى: دار العلم للملايين، ۱۹۷۹م.

وأمره بأن يزور أخوات سودابه ولو لمرة.

وفى صباح اليوم التالى زار سياوش أخوات سودابه، ففرحن وانبسطن، واكتحلن من حسنه ونبله.وأشارت سودابه على والده بتزويجه إحدى أخواتها لكى تضمن قربه، وتزيد حبّه.لكن سياوش رفض.ثم استدعته سودابه مرة ثانية، وعرضت عليه أخواتها بعد أن بثت له وجدها وعرضت عليه حبها.فاختار واحدة لتفادى الأمر، وأفهم سودابه بأنها له مثل الأم، وحرام عليه أن يقابل وفاء أبيه بطعنة من الخلف.لكنها لم تقتنع وبدأت تلجأ للحيلة.فلما كان عندها مرة، عرضت عليه نفسها، فصدّ عنها، فمزقت ثوبها وصرخت صراخا عظيما سمعه الملک کیکاوس، فدخل عليهما ليرى ما فى الأمر.فقالت له سودابه: هذا ولدک حاول اقترابى.فلما صددته لم ينصرف، وباسمک لم يرتدع.فمزّق ثوبى، فصرخت خائفة على الوليد الذى فى بطنى.أما سياوش فقصّ عليه القصة كما جرت.فأخذ يده يشمها، محاولا أن يجد أثرا لرائحة سودابه عليها.فلما لم يجد، عرف أنها المخادعة.لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا بها لأنها ابنة ملک هاماوران، وأم أولاده وخادمة أيامه التى قضاها فى قلعة والدها حين كان سجينا.

التجأت سودابه للحيلة مرة ثانية.فدعت ساحرة عندها كانت حاملا، وطلبت منها أن تسقط الحمل الذى فى بطنها.ففعلت ذلک فى طست من ذهب واختفت.أما سودابه فبدأت تصرخ وتستغيث حتى جاء الملک والقوم وأظهرت لهم صحة أقوالها.فاحتار الملک بالأمر واستدعى العلماء والوزراء، فكشفوا له بعد مضى أسبوع أن الحمل الذى فى الطست ليس من ظهره ولا من رحم زوجته، بل هو لساحرة اختفت ولم تعد للظهور. وحتى يتيقن من الأمر أشاروا عليه بنار عظيمة، إن خاضها أحد الخصمين وهو برئ لم تحرقه.فحضروا الأخشاب حتى صارت على شكل جبلين عظيمين وأوقدوا فيها النار. وهيأ سياوش نفسه للدخول فيها وسودابه على النافذة فرحة بما سيصيبه.فلما دخل بفرسه وخرج سالما، هلل الجميع فرحين وبقتل سودابه مصرِين.لكن سياوش تشفّع لها عند الملک فأبقى عليها.

ثم بلغ كيكاوس أمر تأهب أفراسياب للاستيلاء على إيران.فجمع قواده ووزراءه،

وأوكل أمر جيشه إلى رستم وسياوش الذى عرض نفسه تخلصا من حيل سودابه، طامعا بالصيت الذى سيكسبه من مقتل أفراسياب، فذهب قاصدا ضيافة دستان فى زابلستان، فأقام عنده شهرا، ثم أكمل طريقه متابعا، مجمّعا جيوشه من كلّ مدينة كان يمرّ بها حتى وصل بَلَخ، فباغت جيوش الترك بغتة فقضى على معظمهم.وأرسل إلى والده رسولا يستأذنه فى عبور جيحون، فكان له ما أراد.أما أفراسياب الذى لحقته الهزيمة فقد حلم حلما مزعجا بعد تبلّغه خبر انهزام جيشه...فارتعد مرجفا، وأرسل فى طلب المنجمين مسرعا.ففسّروا حلمه بأن قَتْلَ سياوش وعدم قتله سيجرّ الويلات على مملكة توران. فسعى لدى سماعه هذا الخبر إلى الصلح وأرسل أخاه جرسيوز رسولا إلى سياوش.وصل جرسيوز وأفضى بما معه لسياوش الذى استمهله للتشاور.فاجتمع برستم، ورأيا إثباتا لكلام أفراسياب الطلب منه إرسال مائة رهينة، والتخلى عن بعض أراضى توران لمملكة إيران.فأجبر الأخير على تنفيذ الرغبات وإرسال الطلبات.لأنه لو لم يفعل فسيُظَنّ به السوء ويلحقه المكروه.أما سياوش فأرسل رستم رسولا إلى كيكاوس مشيرا عليه وقف الحرب.فما أن عرف الملك بذلك، حتى ثار وتوعّد وهدّد فى وجه رستم.واتهمه بأنه حرّض ولده على وقف الحرب وقبول صلح أفراسياب لما فى نفسه من رفاهية وحبّ للمهادنة.وأمره بالبقاء عنده وأرسل توسا لقيادة جنده.فلما وصل إلى حضرة سياوش، علم الأخير بغضب أبيه وبتصميمه على محاربة أفراسياب.فاهتمّ واغتمّ، ولم يكن مصمما لنقض وعد أفراسياب.فاختار من قواده زنكة بن شاوران رسولا إلى أفراسياب يعلمه فيه تصميم أبيه على محاربته، مرجعا له الرهائن، سائلا إياه السماح له بعبور بلاده ليسكن طرفا من الأرض، معتزلا التاج والعرش، متخلصا من كيكاوس، مستريحا من سوء خلقه وفساد طبعه.فرحّب الأخير بقدومه، وبالغ فى إظهار مودته، ورغبته فى تزويجه إحدى بناته.فيصير إليه عرش إيران بعد وفاة كيكاوس، وسياوش عنده بين يديه، فيصبح ملك الجانبين وصاحب الدولتين.

عبر سياوش نهر جيحون، وهو حزين القلب.فترك ممالك إيران واتجه إلى بلاد توران.فلما وصل استقبله بيران قائد جيش توران.فاستأمنه سياوش وسأله: هل يمكننى

أن أثق بأفراسياب وأقيم عنده، أو ألجأ إلى حصن آخر خوفا منه؟ فاستوثقه بيران مؤكدا أن نفس أفراسياب تعمل بغير ما تضمر، وأن كل شئ فى توران تحت إمرة بيران. وبعد مدة صارا كصديقين، ثم ارتحلا إلى أفرسياب الذى ما إن رآه حتى بُهت لجماله وحسن كماله، وأنزله فى نفسه أحسن منزلة، وخلع عليه الهدايا والجواهر، ونفائس الكنوز والذخائر.ومضت سنة على هذه الحال، وأفراسياب لايرى ولايفكر إلا بسياوش فهام حبا به وأنزله منزلة ولده ووافق على تزويجه فرنكيس بطلب من بيران.تم زواج فرنكيس من سياوش وانتقلا إلى موضع بنى فيه سياوش مدينة دعاها بسياوش كرد، فكانت كالروضات منظرا وكالقصور بنيانا وعزّا.

طلب أفراسياب من أخيه جرسيوز زيارة سياوش للاطلاع على أحواله وأفعاله فى مدينته الجديدة.فارتحل ولما وصل استقبل بالدرر المنثورة، وأنزل مع حاشيته فى القصور المبهورة.وأجلسه سياوش قرب عرشه، مبسوطَينِ فرحَينِ وبالشراب آمرَينِ.لكن فرح جرسيوز كان فى الظاهر، أما فى الباطن فقد دخل قلبه الحسد، وقرّر أن يوغر صدر الملك أفراسياب على سياوش خصوصا بعدما نازل هذا الأخير رجيلن من أشجع رجال جرسيوز فغلبهما.فلما عاد إلى أفراسياب تفوّه بالأباطيل، وقال الأكاذيب على سياوش، واتصاله سرّا بأبيه كيكاوس، وتحضيره آلاف الجيوش لخلع أفراسياب عن عرش توران. فذُعر مما سمع، وبعث جرسيوز ثانية إلى سياوش طالبا منه المجىء، وصل جرسيوز إلى سياوش مهتما ومهموما.فلما سأله عن أحواله أجاب: يا مولاى، ما لى أرانى إلا نذير شؤم لک.فالملک أفراسياب قد غيّر رأيه فى حقک، وهو يريدک أن تحضر إليه.لكنى أنصحک وعن السوء أبعدک، فاكتب إليه كتابا تعتذر فيه عن سبب تأخرک بالرحيل، علّنى أهدئه، بينما تكون قدخرجت إلى مكان تكون فيه بمأمن عن نفسک وروحک. ثم أخذ بنفسه الرسالة وطار مسرعا إلى أفراسياب، فوصل فى ثلاثة أيام.فلما دخل إلى حضرة أخيه، سأله عن عجلته وسبب رحلته، فأجاب مشوّها الحقائق، محرّضا إياه على سياوش الذى تفاقم شرّه واستفحل أمره.فما كان من أفراسياب إلا أن حضّر جيشه ووجهه إلى سياوش.فلما علم سياوش بقدومه ودّع زوجته فرنكيس طالبا منها الحفاظ

على ولدها الذى فى بطنها، وخرج.وبينما هو خارج مع حرسه، لاقاه أفراسياب بجنده. فاقتتلا قتالا عظيما وقبض على سياوش الذى كبّل وسيق إلى حضرة أفراسياب.فلما مثل بين يديه، تردد فى رأيه بين مستعجل فى قتله، ومستمهل فى سجنه، وبتحريض من جرسيوز وقواده سلّمه إلى كروى زره الذى أخذه إلى جانب فى الصحراء وذبحه بخنجر جرسيوز الذى قدمه إليه فى طست من ذهب.فنبت مكان الدم نبات معروف بخون سياوشان أو بدم الأخوين.

علمت فرنكيس بمقتل زوجها فلطمت خدها ونتفت شعرها ولعنت أباها الذى ربّاها. فما أن صرخ صراخها حتى أمر بها طالبا قتلها، وإسقاط الوليد الذى فى بطنها.لكن توسلات بيران الذى قدم بطلب من أخيه بليسم، شفعت لها. فأخذها وفى قصره وضعها طالبا من زوجته أن تنزل فى خدمتها كأنها ابنة لها. (مالطى، ۱۹۷۹م: ۵۸-۶۶)

الشخصيات الأصلية والثانوية فى تراجيدية سياوش

يرى المتتبع لهذه التراجيديا أن فردوسى لم يستخدم فيه شخصيات كثيرة بل اعتمد على عدد متوسط وربما يرجع السبب أيضا إلى أن المسرحية بشكل عام لاتتطلب كما وفيرا من الشخصيات.أما الشخصيات الأصلية فى هذا التراجيديا فهم: كيكاوس (كاوس) وسياوش (سياوخش) وسودابه وأفراسياب وجرسيوز.كان كيكاوس حاكما على إيران وأنجب سياوش وتكفل رعايته و«نثر عليه زهر الكواكب وأقعده بجنبه على العرش واهبا إياه كل ما لديه من مال وجواهر وكنوز وذخائر.ثم أعطاه التاج فى السنة الثامنة من قدومه.» (مالطى، ۱۹۷۹م: ۵۸) ولكنه ظلمه إذ أجبره على الحرب.أما سياوش فصوره فردوسى كشابّ فائق الجمال كثير الذكاء شديد البأس لكنه محبّ للسلم.نرى فيه قيما أخلاقية سامية حيث رفض طلبات زوجة أبيه سودابه لأنه لم يكن يريد خيانة الوالد. وحبّه للسّلم دعاه إلى الهروب من إيران بعد أن أجبره والده كيكاوس على الحرب واختار البقاء فى توران.لم يكن سياوش إيرانيا خالصا بل كان إيرانيا باعتبار أبيه كيكاوس، وتورانيا باعتبار أمه وهذا ما جعله متطلعا إلى السلم بين البلدين.أما سودابه

فنراها امرأة ذات وجهين فى الشاهنامة.قبل تزويجها بكيكاوس بذلت جهودها للوصول إليه واقفة فى وجه أبيها هاماوران شاه وظلت وفية لكيكاوس إلى أن كبر سياوش حيث نراها تهيم فى حبّه متمسكة بكل الحيل للوصول إليه.

أما أفراسياب فكان يحكم توران ويعتبر من أبرز المنافسين لكيكاوس.لجأ سياوش إلى أفراسياب وهذا الأخير استقبله بصدر رحب بل زوّجه ابنته فرنكيس وأحب سياوش وقرّبه من نفسه ما أدى إلى إثارة حسد جرسيوز وأخيرا أمر بقتل سياوش خوفا منه ومصدّقا لأكاذيب جرسيوز.أما جرسيوز فيعتبر من الشخصيات السلبية فى هذه التراجيديا إذ أشعل الفتنة بين أفراسياب وسياوش محرّضا إياه على قتل سياوش.كان جرسيوز خائفا من مكانة محسوده ولم ير نفسه فى مستواه.

ومن الشخصيات الثانوية فى هذه التراجيديا نذكر: رستم معلم سياوش ومؤدبه، وفرنكيس زوجة سياوش، وبيران وزير أفراسياب الذى شجّع أفراسياب على تزويج ابنته بسياوش وفى آخر المطاف لام أفراسياب على قتل سياوش مانعا إياه عن قتل ابنته فرنكيس متوليا أمر رعايتها أخيرا.ويعتبر كيخسرو نجل سياوش الذى كان فى بطن أمه إذ تنبأ سياوش قبل مقتله أنه سيكون بطلا شهيرا ووصى أن يحافَظَ عليه وأن ينقل بعد ولادته مع فرنكيس إلى إيران.

وبين هذه الشخصيات نرى بيلسم باعتباره أخا لبيران الوزير وكان حاضرا عند مقتل أفراسياب وحاول أن يصرف أفراسياب عن قتل سياوش إلا أنه لم ينجح، ولكن الدور الذى لعبه هو أنه نقل وصايا سياوش إلى أخيه بيران.أما كروى زره ودمور فكانا بطلين من رجال جرسيوز وهزمهما سياوش ذات مرة وعندما أنزل أفراسياب جيشه على سياوش أخذا يشجعانه على قتل سياوش، وكروى زره هو الذى أخذ خنجرا وقطع رأس سياوش فى طست من ذهب.

و فى مستهلّ التراجيديا هناك جارية تورانية حسناء لم يذكر لها اسم وهى التى تقع موضع نزاع توس وكيو اللذين احتكما إلى كيكاوس الذى ينهى نزاعهما بضم الجارية إلى حريمه.أما كيو يظهر فى آخر التراجيديا أيضا إذ ينقل فرنكيس وكيخسرو إلى إيران

بوصية من سياوش.وأخيرا نذكر بهزاد بوصفها فرسا خاصا لسياوش جاء ذكرها عندما يعبر سياوش النار راكبا هذه الفرس.

العبر التاريخية فی تراجيدية سياوش

إن غاية المسرحية كما أشار إليها بعض الكتّاب: «تبليغ نموذج قيّم من الاعتدال المعرفی واستمراره.» (ديجز، ١٣٦٦ش: ٢١٣) يقول ريجاردز: إن الشاعر لاينقل الحقيقة عن عالم الواقع، بل يقدم عادات تنتج عن اعتدال الجهاز العصبی ومن الواضح أن المأساة لاتقدم إلا هذا.ومن هذا المنطلق نجد لمفاهيم كالاعتدال أهمية فائقةفی الآداب، والمأساة بوصفها تجربة تجرّ المخاطب إلى أعماق تصاويرها، تصبح ذات أهمية إذ تخلق الاعتدال. (بازرگان، ١٣٨٦ش: ٤٠-٤١)

أما المأساة التی عرفها أرسطو: بمحاكاة للسلوک والحياة والسعادة والشقاوة، (زرين كوب، ١٣٥٧ش: ١٢٣) فكيف تخلق هذا الاعتدال؟ ومن البديهی أن التراجيديات تقوم غالبا بإيجاد التقابلات بين الصفات البارزة للبطل واللابطل، والحسد من أبرز هذه الصفات. ولعل أول نموذج تقليدی للحسد فی الأدب الدينی هو ما حصل لهابيل وقابيل إذ يصور لنا أول حادث قتل مكتوب فی التاريخ البشری، ولكن النموذج الأكثر بروزا هی قصة يوسف وإخوته.إن يعقوب الذی استوعب جذور الحسد فی أولاده حاول إبعاد الولد الأصغر عن آفات هذا الويل ولكنه لم يُوَفَّقْ. فالذئب فی هذه القصة رمز للحسد، وأولاد يعقوب قالوا لوالدهم إن الذئب أكل يوسف. (بازرگان، ١٣٨٦ش: ٤١) و قد تنبّه مولانا إلى هذا الأمر وأشار إليه بقوله:

- كان يعقوب الحليم خائفا على يوسف من فعل هذا الذئب.
- لانرى ذئبا ظاهرا يعادی يوسف إنما هذا العداء اكتسى ثوب الحسد الصادر من الذئاب. (مولانا، ١٣٨٢ش: ٢٣٦)

وفی الأدب الملحمی يمكننا اعتبار قصة سياوش فی الشاهنامة للحكيم فردوسی، أقرب قصة إلى النص المذكور ونموذجا ناجحا للتراجيديا التی جمعت العناصر قاطبة.

يعتبر سياوش أميرا عاقلا شجاعا حسن المنظر يتألم من مكر سودابة وجهل کاووس المستبد ولهذه الأسباب يلجأ إلی مملكة أفراسياب، ولكنه يصبح هناك محسودا لجرسيوز وهو أخ لملک الأتراک:

دل و مغز گرسیوز آمد به جوش   دگرگونه تر شد به آیین و هوش
به دل گفت سالی دگر بگذرد   سیاوش کسی را به کس نشمرد

- ضاق صدر جرسيوز وتغير مسلكه وعقله.
- قال فی نفسه سيمرّ عام آخر وبعد ذلک لايعتنی سياوش بأحد. (فردوسی، ج۱، ۱۳۶۹ش: ۵۰۳)

وهذا المضمون طالما نجده فی معظم النتاجات الملحمية وكثير من مسرحيات العالم الشهيرة إذ يصبح الحسد محركا لعجلات القصة.فأينما كانت الفضائل موجودة يظهر الحسد أيضا وهذا الأخير بمثابة عقدة نفسية ناتجة عن الشعور بالحقارة.يشعر هابيل بحقارة لدى هابيل كما لإخوة يعقوب نفس الشعور تجاه يوسف وجرسيوز أيضا يشعر بالحقارة عندما يتقدّم عليه سياوش:

تو حســودی کز فلان مــن کمترم   مــی نمایــد کمتــری در اختــرم
خود حسد نقصان وعیبی دیگرست   بلکــه از جمله کمی ها بدترســت

- إنک حسود إذ تحسب نفسک أدنی مرتبة من فلان وتعتبرها أقل حظا من الآخرين.
- أما الحسد فهو عيب آخر أكثر سوءا من سائر النقائص. (مولانا، ۱۳۸۲ش: ۲۱۳)

لكننا ندرک تماما أن التراجيديا لاتُخلَقُ بدونه، وهذا العيب بدوره يعطی صاحبه فرصة يتمكن فيها من إعداد دسائسه التی تحظی بدعم من التقدير وفقا لطبيعة التراجيديا وبالمقابل يساعد البطل الأصلی المتمتع بفضائل مثيرة للحسد، علی تحقيق الكارثة دون استيعاب وفی هالة من سذاجة مردية.إن إلقاء نظرة علی النتاجات التراجيدية تدلنا علی تصوير مثلث الأبعاد لهندسة التراجيديا وهو مثلث بسيط نری فی كل زاوية منه العناصر التالية:

١. عنصر القدرة: وهذا العنصر يتواجد لدى الحكام، وشورى السلطة، والكنيسة فى القرون الوسطى، فالحكام عادة يمتلكون عقولا ضعيفة ومشاعر متغيرة تصلح للوساوس.

٢. العنصر المخادع: وهو مراوغ يؤدى حسده إلى الدسائس والحيل وأخيرا الجنايات.

٣. عنصر الضحية: وهو يتمثل فى البطل الأصلى للقصة الذى يمتلك روحا كبيرة منطوية على الفضائل مثيرة للحسد. (بازرگان، ١٣٨٦ش: ٤٢)

تتحد هذه العناصر بطريقة واحدة عادة وهو أن حسد العنصر المراوغ يسوقه ليضمر حقد البطل (الضحية) ويتمسک بقدرة الحاكم کسلاح للوصول إلى غاياته حيث يحرّض عنصر القدرة على قتل الضحية.هذا المثال ينطبق وکثيرا من مضامين الآداب الدرامية منها التراجيديات التالية: ١. مسرحية أتللو لويليام شکسبير: يسعى (أياجو) الحقود والحسود لإبادة منافسه (کاسيو) بعد أن أثار غيرة (أتللو) وأخيرا يحرض أتللو على قتل زوجته الحبيبة (دسدمونا). (شکسبير، ١٣٥٧ش) ٢. مأساة أجمنت لغوتة: يصبح کنت أجمنت الساذج الحر، ضحية لدسائس (دوک آلبا) ومحکمة السلطة تحکم عليه بالشنق. (غوته، ١٣٤٦ش) ٣. تراجيدية دون کارلوس لفردريک شيلر: يقوم فيليب الثانى (الحاکم)، بقتل دون کارلوس (ولى العهد) جراء وساوس أثارتها حسادة کل من (کنت آلبا) و(البابادو مينغو). (شيلر، ٢٥٣٧) ٤. تراجيدية سياوش فى الشاهنامة للحکيم الفردوسى: إن الحقد والحسد لدى جرسيوز يثيران قدرة أفراسياب ما يؤدى إلى قتل سياوش.

هذه النماذج التى تم تصميمها وفقا لحقائق التاريخ تدلّ على مصير مماثل فى تاريخ العلاقات الإنسانية خاصة فى أنظمة الحکم الاستبدادى.تلک الأنظمة التى يتخذ فيها شخص واحد القرار النهائى.قدم مؤلفو کليلة ودمنة هذا المثال فى أجزاء من الکتاب بدراية کاملة: فالأسد (عنصر القدرة) يشق جسد شنزبة المظلومة (الضحية) جراء إغواءات دمنة الحسود (العنصر المراوغ).ألا يمکننا اعتبار شنق حسنک وزير جراء دسائس بوسهل الزوزنى وحکم مسعود الغزنوى، تکرارا للتاريخ؟ وماذا نسمى قتل قائم

مقام فراهانى وأميركبير بعد مكائد كلّ من ميرزا آغاسى وميرزا آقا خان نورى؟ (بازرگان، ۱۳۸۶ش: ۴۴)

تُواصِلُ جميعُ عناصر التراجيديا فى النتاجات الأدبية – بوصفها مرآة لحقائق التاريخ – حركتَها الجبرية نحو مصير يحتّم الموت على البطل؛ والقصة بوصفها مرآة للتقدير تنتهى إلى الموت. يتمتع الموت ببالغ الأهمية إذ لايمكن تصوير عمق المأساة ولايعى الإنسان مدى قبح الرذائل ولايستثار عليها دون وجود هذه الحقيقة، أى الكارثة المأساوية التى تنزل على البطل.فالتراجيديا يكتمل بموت البطل ويصل إلى شكله النهائى.إن إلقاء نظرة متأنية إلى هذا المثلث يكشف اللثام عن حقائق أخرى:

۱. لكل زاوية من هذا المثلث نقطة ضعف يمكن تسميتها نقاط الضعف الثلاث:

أ. يعترى القلق كلا من عنصر القدرة والعنصر المحايل.فالعنصر المحايل يخاف فقدان مقبوليته.لايسكت عن وجوده الغضب ويحاول جاهدا أن يثير غضب عصنر القدرة أيضا.

يخبرنا علم النفس أن الحسد والغضب ينتجان عن الخوف.يخاف الحسود أن يبقى مجهول الهوية لايعرفه أحد ويظل فى أدنى المستويات ولذلک لايمكنه الخضوع لشخصية تمتلک فضائل أكثر إذ يخشى من أن يختفى فى ظلالها.ألا يمكن اعتبار هذا الخوف ناتجا عن الحرص أو الكبر؟ أيّا كان، فإنه خوف مقيت يدفعه بأى خداع، وللأسف بدل أن يحل هذا الخوف حلّا ذكيا، يلجأ إلى السعى فى هلاک المنافس وشطب أصل المشكلة.

عنصر القدرة أيضا يعيش فى أجواء خوف جادة.خوفه ينشأ عن ظنه بفقدانه مساحة القدرة، والعنصر المراوغ أيضا يعزف على هذا الوتر واعيا.ومن منطلق علم النفس يصح إذا قلنا إن الحاكم الذى يعيش حياة الخوف من ناحية، يعيش فى قلق مستمر من ناحية أخرى أيضا.هذا الأمر يبرز فى تراجيدية سياوش بروزا واضحا.كلمة أفراسياب تعنى المخوّف الذى ألقى الخوف فى قلوب الآخرين. (بورداود، ج۱، ۱۳۴۷ش: ۲۱۱) ولكن فى الوقت نفسه كان هو أيضا خائفا بشدة، وهذا الخوف يتجلى فى حُلم يكشف عن أعماق

ضميره:

خروشی بر آمد از افراسیاب   بلرزیدازآن‌جای‌آرام‌وخواب
نهادند شمع و بر آمد به تخت   همی بود لرزان بسان درخت

- اعترى أفراسياب انتفاض أقض مضجعه وحرّم عليه النوم.
- فأشعلوا له الشموع (کی يستنير بضوئها ويتغلب على فزعه ولكن دون جدوى) فاستلقى على سريره مهتزا كالشجرة. (فردوسی، ج۲، ۱۳۶۹ش: أبيات ۷۴۶ إلى ۷۸۰)

رأى فی المنام صحراء ملؤها الحيات، وأرضا يابسة مغبرة وسماء تملؤه العقبان.إن ريحا تؤدی إلى إسقاط عَلَمِه وشابا يشق كاووس أمام الأنظار.

جاء هذا النموذج فی الشاهنامة بشأن الضحاک أيضا. يحلم الضحاک أن فريدون كبّله ويجرّه خلفه.

بپیچید ضحاک بیدادگر   بلرزید و ناگه بر آورد سر
یکی بانگ بر زد بخواب اندرون   که لرزان شد آن خانه بیستون

- التوى ضحاک الظالم ورفع رأسه فجأة وهو ينتفض.
- صاح فی النوم صيحة هزت البيت. (المصدر نفسه: أبيات ۴۳ إلى ۱۱۷)

وهذه ليست قصة جديدة باعتبارها نفس الحلم الذی مرّ على خاطر فرعون فی الثقافة الدينية وأمر جرّاءه بقتل جميع مواليد بنی إسرائيل.

ب. يرافق الضلعَ الثالثَ (الضحية=البطل) أيضا ضعف حقيقی، لأنه سريع الانقياد ساذج غافل. يقابل فی مأساة سياوش سذاجته وقدرته على التنبؤ ومعرفته للأسرار وكأنه على حدّ تعبير مسكوب: «غريب مبهوت سقط من أعلى الملكوت على أرض الملک.» (مسكوب، ۲۵۳۷: ۶۵) يرى البعض أن التراجيديا خاصة ما يتم خلقها فی حلبة الملحمة، تتطلب أن لايغرق البطل فی الطموحات الأخلاقية كما تحتم عليه أن يكون على دراية سياسية ولو جزئيا. (رحيمی، لاتا: ۲۱) يرى بعض المتخصصين فی مجال الشاهنامة أن ضعف سياوش يكمن فی عرضه فضائله على عيون جرسيوز الضيقة وضميره الحسود. (عباديان، لاتا: ۱۷۹)

٢. يكون عنصرا القدرة والضحية قريبين من بعض فی بداية القصة. يحب صاحب القدرة، الضحية لفضائلها.كاسيو ودون كارلوس وأجمنت وسياوش كلهم محبوبون مرغوبون.أتللو يحب كاسيو كما أن أفراسياب يحب سياوش فی البدء معتبرا إياه ولده الذی تم إبعاده عن أرضه بل ينكحه ابنته بناء على اقتراح الشيوخ:

بدو داد جان و دل افراسياب همی با سياوش نيامدش خواب

- سخر سياوش قلب أفراسياب وضميره وبوجوده لم يغلب النوم عليه. (فردوسی، ١٣٦٩ش: البيت ١٣٨۴)

ولكن بمرور الأيام وبعد أن دسّ المراوغ السم فی كأس مودتهما، تتوتر العلاقات ويری الحاكم الضحية خطرا عليه وعلى ملكه وأريكته.

لايمكننا فی مأساة رستم واسفنديار، أن نرسم أضلاع المثلث بوضوح لأن جستاشب تكفل بنفسه ضلعين للمثلث حيث جمع فی نفسه عنصری المراوغ والقدرة معا؛ فمن ناحية يعرف أهلية الولد لإحراز الحكم منكرا إياها لحرصه، ومن ناحية أخری، يخاف أن يفقد سلطانه بواسطته. ففی ثوب المراوغ يرسل الولد المنافس إلی مهمة لارجعة له منها إذ يعرف أن دخول سيستان لاسفنديار بمنزلة اجتياز بوابة الموت وهكذا يتغلب على المنافس. تتكرر هذه اللعبة فی مأساة سهراب بيد أفراسياب إذ يتكفل بوحده دور المراوغ والقدرة معا.يساق سهراب أيضا إلی سفر، عواقبه هلاک المنافس (سهراب نفسه أو رستم أو كلاهما).

٣. يتم خلق التراجيديا فی بيئة يمتزج فيها مفهوما الجبر والاختيار فی جدال غير متساو. فبالرغم من أن بعض الباحثين رأوا اختلافا فی مقدار غلبة التقدير فی تراجيديات أثينا وتراجيديات الشاهنامة، (كيا، ١٣٦٩ش) إلا أن الجبر فی كليهما يحتل المكانة الأولی.فأحيانا يشتد دور المصير الجبری بحيث يشعر القارئ أنه لايوجد عنصر إلا ويتبع ما خطه قلم التقدير ولعل هذا ما ساق (آنوی) ليقول فی الأجزاء الأولی لمسرحية أنتيغون: «لايوجد شیء لايجد مصيره فی التراجيديا لأن مصير الكل واضح...فهناک نوع من التآسی بين شخصيات التراجيديا.فالقاتل يتمتع بكل ما يتمتع المقتول به من العصمة

والطهارة. كل ذلک يرتبط بالدور الذى تقوم بتمثيله.» (كادن، ۱۳۸۰ش: ۴۵۵)

وهذا يعنى انتصار المصير الذى يمشى على هواه، ويهلک الضحية بين مخالبه الشرسة.لكن المهم هو أن مرد ظهور العاقبة المرة فى رأى المشاهد إلى الأخطاء الثلاثية الأبعاد للشخصيات حيث يمكن بالتغلب على أحدها تعطيل العجلة المنتهية إلى المأساة والمشاهد يرى فى إطار تفكيره إمكانية تحقيق هذا الأخير. (بازرگان، ۱۳۸۶ش: ۴۴-۴۷)

النتيجة

رأينا ممّا تقدّم أن المسرحية بوصفها محركا يصطحب متلقيه إلى عمق قاعات التفكير، كيف تؤثر فى تحرّر الإنسان من المشاعر السلبية وكيف تقدم له خدمات أخلاقية جليلة نيلها يتطلب عصورا من التجربة البشرية. فغاية الآداب الإنسانية لاتقتصر على ملء الفراغ بل تتجلى فى السمو بالمتلقين، سواء كان فى المجال الأخلاقى أو المعرفى، والأدب الذى يخلو من هذه السمات لايمكننا اعتباره أدبا ساميا.

نعم استطاع جرسيوز أن يتغلب على سياوش بعد دسائس كثيرة ولكنه لم ينجح فى التغلب عليه لا طيلة حياته ولا بعد قَتْلِه لأنه كان يمتلک صفات إنسانية نبيلة خلّدته مدى الدهر وجعلت اسمه رمزا للبطل المحب للسلام.وجرسيوز أيضا خلّدته دسائسه وحِيَلُه، وكلّ من يقرأ هذه التراجيديا يحاول أن يبتعد عن هذه الأخلاق الرذيلة والصفات السلبية.

المصادر والمراجع

انوشه، حسن. ۱۳۸۱ش. *دانشنامه ادب فارسى. الطبعة الثانية*. طهران: وزارة فرهنک وارشاد اسلامى.

بازرگان، محمدنويد. ۱۳۸۶ش. «*طرحى در هندسه تراژدى*». پژوهشنامه فرهنگ وادب. شماره پنجم. سال سوم. صص ۳۹-۵۰.

بورداود، ابراهيم. ۱۳۴۷ش. *يشتها*. ج۱. طهران: طهورى.

حلمى، أحمدكمال الدين. ۱۹۸۵م. *عالم الفكر*. «شاهنامة الفردوسى». الكويت. المجلد السادس عشر. مايو-يونيو ۱۹۸۵م.

دیجز، دیوید. ۱۳۶۶ش. *شیوه های نقد ادبی*. ترجمة یوسفی، صدقیانی. طهران: نشر علمی.

رحیمی، مصطفی. لاتا. *سیاوش بر آتش*. طهران: شرکت سهامی انتشار.

زرین کوب، عبدالحسین. ۱۳۵۷ش. *ارسطو وفن شعر*. طهران: نشر امیرکبیر.

شفیعی کدکنی، محمد رضا. لاتا. *زمینه های اجتماعی شعر فارسی*. طهران: لانا.

شکسبیر، ولیام. ۱۳۵۷ش. *اتللو*. ترجمة عبدالحسین نوشین. طهران: امیرکبیر.

شمیسا، سیروس. ۱۳۷۰ش. *انواع ادبی*. طهران: باغ آیینه.

شیلر، فردریک. ۲۵۳۷. *دون کارلوس*. ترجمة محمدعلی جمالزاده. طهران: بنگاه ترجمه ونشر کتاب.

عبادیان، محمود. لاتا. *فردوسی وسنت نوآوری در حماسه سرایی*. طهران: نشر گهر.

غوته، یوهان. ۱۳۴۶ش. *اجمنت*. ترجمة محمدباقر هوشیار. طهران: بنگاه ترجمه ونشر کتاب.

فردوسی، أبوالقاسم منصور بن حسن. ۱۳۶۹ش. *شاهنامه*. تصحیح وتقدیم امین ریاحی. طهران: نشر سخن.

--------------------. ١٩٧٩م. *الشاهنامة ملحمة الفرس الكبرى*. ترجمة سمير مالطي. الطبعة الثانية. بيروت: دار العلم للملايين.

کادن، ج.ای. ۱۳۸۰ش. *فرهنگ ادبیات ونقد*. ترجمة کاظم فیروزمند. طهران: نشر شادگان.

کیا، خجسته. ۱۳۶۹ش. *شاهنامه فردوسی وتراژدی آتنی*. طهران: انتشارات علمی وفرهنگی.

مسکوب، شاهرخ. ۲۵۳۷. *مرگ سیاوش*. طهران: انتشارات خوارزمی.

مولانا، جلال الدین الرومی. ۱۳۸۲ش. *مثنوی*. تصحیح نیکلسون. طهران: هرمس.